الباب الأول

ملـــة عيســى ـ عليـه السـلام ـ

وفيه المسائل التالية :

الفصل الأول : ميلاد المسيح عيسى ـ عليه السلام ـ

الفصل الثاني : دعوة عيسى إلى التوحيد .

الفصل الثالث : عقيدة التوحيد بعد عيسى عليه السلام .

الفصل الأول

في

ميلاد المسيح عيسى - عليه السلام -

الفصل الأول

الفصل الأول: في ميلاد المسيح عيسى ـ عليه السلام ـ

تمهيد:

لما كان عدم فهم الحكمة من ميلاد المسيح عليه السلام بدون أب قد يكون السبب الأول [1] في ضلال النصارى، وبُعدهم عن حقيقة رسالته، حيث ادعوا له الألوهية وخرجوا به عن الدائرة البشرية، وفي المقابل نزل اليهود به وبأمه إلى أدنى الدرجات الأخلاقية، بينما قال الإسلام في هذه القضية قولاً يغاير به هؤلاء وأولئك؛ رأيت من اللائق أن أفرد في صدر الرسالة هذا الفصل عن ميلاد المسيح عليه السلام، وأعرضه في إطارات ثلاثة:

الأول: كما تصوره الأناجيل.

والثاني: كما توهمه اليهود.

والثالث: كما تحدث به الإسلام.

والنية المنعقدة وراء هذا الغرض هي أن نبين صورة واضحة عن هذا الميلاد العذراوي الذي خالف مألوف الحياة لينبه العقول إلى كمال قدرة الله تعالى التي لا تحد بمكان ولا زمان؛ لأنه جل في علاه هو خالق المكان والزمان، وصدق إذ يقول: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [2].

أولاً: الأناجيل والميلاد:

لا شك أن هذا الميلاد العجيب فيه بالفعل إثارة ودهشة، إلا أننا لا نرى الأناجيل كلها قد تعرضت له واهتمت بسرده، وكأنه أمر لا يصح أن يثير

(١) هناك أسباب أخرى يعتمد عليها النصارى في القول بألوهية المسيح مثل معجزاته عليه السلام ـ وسنتعرض لمناقشتها فيما بعد إن شاء الله.

(٢) سورة يس آية ٨٢.

اهتماماً أو يُلقى له بال، علماً بأن المسيحية الحاضرة بنيت على قواعده، فهي تدعي أن المسيح هو الابن الحقيقى لله تعالى، وهو أحد الأقانيم الثلاثة[٣].

وهذا الإغفال واضح وملموس في إنجيلي مرقس ويوحنا اللذَين لم يشيرا أية إشارة إلى هذا الميلاد، والقديس بولس ـ مؤسس المسيحية [٤] وداعيتها الأول ـ لم نر له رسالة واحدة تشير إلى هذا الميلاد، والذي أشار إليه هو متى ولوقا، ومع ذلك نرى أن الدقة التاريخية غير ملموسة في سرد القصة، والنزعة الذاتية ظاهرة المعالم في هذه السيرة؛ ولذلك يقول المسيو شارل جنبير ـ أستاذ ورئيس قسم الأديان بجامعة باريس ـ: « يجب علينا أن ننظر إلى الكتب التي تدعي سرد سيرته ـ أي المسيح ـ على أنها مؤلفات تستند إلى كثير من التحكم والنزعات الذاتية» [٥]، ومع ذلك فلا بد من النظر في هذه الكتب؛ لأن النصارى يأبون الاحتكام إلا إليها. ونبدأ بمتّى الذي يقول في إنجيله عن هذا الميلاد: « أما ولادة يسوع فكانت هكذا: لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف، قبل أن يجتمعا وجدت حبلى من الروح القدس، فيوسف رجلها إذ كان باراً ولم يشأ أن يشهرها، أراد تخليتها سراً، ولكن فيما هو متفكر في هذه الأمور إذ ملاك الرب قد ظهر له في حلم قائلاً: يا يوسف بن داود، لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك؛ لأن الذي حبل به فيها هو من الروح القدس، فستلد ابنا وتدعو اسمه يسوع» [٦]، ثم يقول: «فلما استيقظ يوسف من النوم فعل كما أمره ملاك الرب، وأخذ

(٣) سنتعرض لشرحها حينما نناقش قضية الثالوث إن شاء الله.

(٤) يرى الكثير من المؤرخين ذلك، وما ذاك إلا لأن رسائله هى التي تقوم عليها المسيحية الحاضرة.

(٥) المسيحية نشأتها وتطورها: ص ٣٤، ترجمة د/ عبد الحليم محمود. ط دار المعارف.

(٦) إنجيل متى إصحاح: ١/ ١٨ ـ ٢١.

امرأته ولم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر[٧]، ودعا اسمه يسوع»[٨]. وعلى هذا النسق يسير الأستاذ زكي شنوده ويقول: « إن الله أرسل ملاكه إلى عذراء اسمها مريم، مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف، من مدينة الناصرة، إحدى مدن فلسطين، وبشرها بأنها وجدت نعمة الله فاختارها ليولد منها المسيح، مخلِّص العالم بحلول الروح القدس عليها، فقبلت البشرى فرحة، وتم لها ما قاله الملاك، فحبلت به من الروح القدس» [٩] وهكذا يبشر الملاك مريم بوليدها، ولكني أرى أن البشرى هنا ناقصة ولابد من سرد أحداث أخرى وذلك لأمرين:

الأول: يتعلق بمريم ذاتها، فالمرء لا يمكن أن يصدق بأن مريم قد قبلت البشرى من أول مرة بكل نفس راضية، كما يقول زكي شنوده، فهذا ما يخالفه واقع أي فتاة تبشر بوليد لها وهي عذراء دون أي قلق يصيبها أو خوف يعتريها.

والثاني: يتعلق بقومها، فلا يعقل أن حادثًا كهذا قد مر بين اليهود دون أخذ ورد وطلب ومحاكمة، ولا يعقل أنهم صدقوها في دعواها أن هذا الوليد قد جاء بفعل الله، دون أن يكون لإنسان دخل فيه، والقول بأن هذا الوليد مخلِّص العالم لا يرفع ما ذكرناه.

أما الادعاء بأنه من أقوال الملاك فلا نصيب له من الصحة؛ لأن التصديق به يناقض قول المسيح: « لم أبعث إلا لخراف بني إسرائيل الضالة»[١٠]، ولم يقل لتخليص العالم.

(٧) تدعي الأناجيل أن مريم كان لها أولاد فيما بعد من يوسف النجار بعد أن تزوجها.
(٨) إنجيل متى ١ / ٢٤ ـ ٢٥. (راجع إنجيل لوقا إصحاح ٨).
(٩) تاريخ الأقباط ج١ ص ٥٨ ذكي شنوده.
(١٠) إنجيل متى إصحاح ١٥/ ٢٥.

وعلى كلٍّ فالبشرى ناقصة، ولابد من بشرى كاملة تطمئن نفس مريم، وتؤمِّن على حياتها وحياة وليدها مستقبلاً، وهذا هو ما أغفلته الأناجيل وسطره الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان، وسنتعرض له عند تعرضنا لحديث الإسلام عن الحمل والميلاد، إن شاء الله تعالى.

الميلاد وظهور النجم:

ويروي متى في إنجيله: «أن المجوس جاؤوا من المشرق إلى أورشليم قائلين: أين هو المولود ملك اليهود؟ فإننا رأينا نجمه في المشرق، وأتينا لنسجد له... حينئذ دعا هيرودس المجوس سرًا، وتحقق منهم زمان النجم الذي ظهر، ثم أرسلهم إلى بيت لحم قائلاً: اذهبوا، افحصوا بالتدقيق عن الصبي ومتى وجدتموه فأخبروني لكي آتي أنا أيضًا وأسجد له، فلما سمعوا من الملك ذهبوا، وإذا النجم الذي رأوه في المشرق يتقدمهم حتى جاء ووقف فوق حيث كان الصبي، فلما رأوا النجم فرحوا فرحًا عظيمًا جدًا، وأتوا إلى البيت ورأوا الصبي فخروا وسجدوا له ثم فتحوا كنوزهم وقدموا له الهدايا ذهبًا ولبانًا ومُرًا، ثم إذا أوحي إليهم في حلم ألا يرجعوا إلى هيرودس، انصرفوا في طريق أخرى إلى كورتهم»[11]. هذا هو ما انفرد به متى في إنجيله من بين سائر الأناجيل.

أما لوقا:

فإنه حين تحدث عن الحمل ذكر آيات لم يقل بها متى، فهو يدعي أن الملاك حين بشر مريم قال لها: «وابن العلي يدعى ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه»[12]. وعن الميلاد: نراه يتحدث بأسلوب يخالف متى، ويبين أن

(١١) إنجيل متى إصحاح ٢/ ١ : ١٢.
(١٢) إنجيل لوقا إصحاح ١/ ٣٣.

يوسف قد فرَّ من الملك إلى بيت لحم مع مريم، وأقاما في مكان للدواب حيث يولد الصبي في مزود البقر: « وبينما هي هناك تمت أيامها لتلد فولدت ابنها البكر وقمطته وأضجعته في المزود إذ لم يكن لهما موضع في المنزل »[١٣].

ويروي لوقا: « أن الجماعة من الرعاة رأوا الملائكة مسبحين قائلين المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرة، فترك الرعاة القطعان، وذهبوا إلى المكان الذي دلهم عليه الملائكة، فرأوا الطفل في المزود، وعادوا وهم يمجدون الله ويسبحون على كل ما سمعوا ورأوا مما قيل لهم »[١٤].

هذا هو حديث متى و لوقا عن الحمل والميلاد[١٥]، وهو حديث يلاحظ قارئه بنقص وفير في سرد الحادث وبفجوات واسعة في جوانب القصة لم تهتم بها المسيحية، ولم تلق لها بالاً، ومع ذلك فلا بد لنا من تعقيب على ما سردته الأناجيل.

تحليل وتعقيب:

لقد أدلى متى بحديث قصير يحمل أسلوبًا ركيكًا عن ميلاد المسيح عليه السلام استعرضه في إصحاحين. هذا والمتأمل في حديث متى يمكنه أن يستنبط ما يلي:

أولاً: إن الملاك نزل على يوسف وأخبره بحمل مريم من الروح القدس، وهذا غير مقبول؛ لأن يوسف ليس بنبي ولا رسول حتى يتصل به الملاك أو يوحى إليه.

---

(١٣) إنجيل لوقا إصحاح ٢/ ٦، ٧.

(١٤) إنجيل لوقا إصحاح ٢/ ١٥ : ٢١.

(١٥) جاء في الإصحاح السادس والسابع في إنجيل برنابا ما يوافق تماما ما جاء في إنجيل متى وكذلك الإصحاح الرابع في إنجيل بر نابا يوافق أسلوبه ما جاء في إنجيل لوقا.

ثانيـــا: إن المسيح الذي ولدته مريم هو المخلِّص لشعبه[١٦] . ولم يكن ابن الله .

ثالثـــا: إن متى صاحب الإنجيل لم يسجل حرفًا واحدًا يشير به إلى بنوة المسيح الحقيقية كما يدعون .

رابعـــا: إن المسيح لم يولد في جو تكسوه الحرية التامة، الأمر الذي لا يجعل متى أو غيره يطلع اطلاعًا تامًا على حقيقة الميلاد وظروفه وملابساته ووقته حتى تكتب قصته بكل دقة وتفصيل .

خامسًا: إن الإرهاصات التي تقدمت ميلاد المسيح، والتي تمثلت في ظهور النجم إن صحت هي دليل واضح على نبوة المسيح كسائر الأنبياء الذين تتقدمهم هذه الإرهاصات، ولم تكن دليلا على بنوته لله ـ تعالى ـ أو ألوهيته .

سادسًا: إننا حينما نخضع قصة المجوس مع المسيح ـ والتي ذكرها متّى ـ لتحليل العقل يتبين لنا أن متّى لم يكن دقيقًا في ذكرها، وأنه اصطنعها في غير موضعها، ونحن بقولنا هذا لا ننكر أن أهل فارس كما يقول الأستاذ العقاد: (كانوا يشتغلون بالفلك والتنجيم، وأنهم كانوا في عصر الميلاد يرقبون حادثًا جللاً في التاريخ البشري . . . وكانوا يرصدون النجوم ليعرفوا من طوالعها بشائر الحدث الجلل المرتقب من حين إلى حين)[١٧]، لا ننكر رصدهم للنجوم والطوالع، ولكننا ننكر دخول المجوس ديار اليهود

---

(١٦) فكرة المسيح المخلّص التي أوردها متّى في إنجيله هي أحد الأساطير التي حاكها اليهود عن الديانات القديمة ، حيث كان هؤلاء كلما نزلت بهم كارثة ينتظرون من يخلصهم من هذه الكوارث .

(١٧) حياة المسيح : ص ٨٤ ، الأستاذ العقاد، ط دار الهلال .

وعلمهم بميلاد المسيح، علمًا بأن الله هو الذي يعلم الغيب وحده، ورصد النجوم لا يؤدي إلى ذلك العلم، وننكر سجودهم للمسيح، مع العلم بأنه لم يرسل إليهم وإنما أرسل إلى شعبه ليخلصهم، والمجوس لا صلة لهم باليهود أو المسيح، اللهم إلا إذا أقر متّى أن المسيح له صلة بالمجوس وهم له ينتسبون، ولذلك نتفق مع الأستاذ عبد الوهاب النجار حينما يقول عن هذه القصة إنها مصنوعة، ونتساءل معه قائلين: « ما شأن المجوس بالمسيح؟ وكيف يسير النجم أمامهم ليهديهم؟ ولمَ جاء إلى أورشليم ولم يذهب إلى بيت لحم؟ وهذه الحكاية لها نظائر في كتب الأوثان» (١٨).

أما لوقا:

فإننا نلمس منه تغايراً في الأسلوب واستفاضة في الحديث عما ذكره متّى بالإضافة إلى حمله لتعبيرات شاذة تنم عن رائحة بهيمية عفنة، وروح يهودية متطرفة خاصة عند ذكره أن المسيح ولد في مزود البقر، فهل ضاقت الدنيا بالله تعالى حتى يولد ابنه في مزود بقر كما يدعون ـ؟

إنْ هذا إلا أفكٌ مفترى يودي بدرجة المسيح الرسول إلى الذلّة والهوان، وهذا هو ما يأباه الإسلام في شخص المسيح الذي كرمه وأحسن ذكره وذكر مولده، ولا أدري كيف نزلت عقلية كاتب هذا الإنجيل إلى هذه الدرجة من الوحل! وكيف تقبل النصارى هذا الافتراء الذي أقل ما يوصف به أنه سخف واستهزاء! ولذلك نرى ول ديورانت بعدما وصف افتراء اليهود على مريم بالسخف ينبه إلى هذا الذكر عند النصارى ويقول: «وأقل من هذا سخفًا تلك التي تذكر في الأناجيل المعروفة عن مولد

(١٨) قصص الأنبياء ص ٤٦٠، الأستاذ عبد الوهاب النجار، ط دار التراث.

المسيح في كهف أو اسطبل، وعن سجود الرعاة والمجوس له وعبادتهم إياه»[١٩].

ومن السخف أيضًا حين يقال: إن لوقا أشار إلى بنوة المسيح لله تعالى حين ذكر عبارات الملاك لمريم قائلاً: (وابن العلي يدعى)[٢٠]، (ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه)[٢١]، (والمولود منك يدعى ابن الله)[٢٢]؛ لأن هذه عبارات لم يقصد بها سوى تزيين أمر المسيح ليدخل على الناس تعظيمه، والمسيح منها براء، ومن هو لوقا الذي يدّعي هذا على المسيح؟

(إنه ليس تلميذا ولا من الاثنى عشر، بل هو رجل دخل في الدين متأخرًا)[٢٣] إذن فهو لم يقابل المسيح ولم يره، فكيف به يسجل ما لم يسجله متّى صاحب الإنجيل الأول؟ وكيف فات هذا على مرقس صاحب الإنجيل الثاني؟ وكيف يفطن إليه لوقا دون سابقيه؟ وإذا سجلت عنده هكذا فهل يصح بناء على ما تقدم أن تؤول إلى بنوة حقيقية؟ ما المانع أن يكون قوله (وابن العلي يدعى) منتزعة من قول زكريا في ابنه يحيى: (وأنت أيها الصبي نبي العلي)[٢٤]، فحرفت في حق عيسى إلى قول لوقا على لسان الملك (وابن العلي يدعى) ليوهموا الناس أن المسيح عليه السلام إله وابن إله، تعالى الله. هذا وإتمامًا للبحث نرى أن نشير إشارة مجملة عن صبا المسيح الذي لم يدَّع بنوته لله، والذي سار عليه الناموس البشري منذ ولادته.

*****

(١٩) قصة الحضارة ج٣ ص ٢١٤ ـ ول ديورانت. ترجمة محمد بدران.
(٢٠) لوقا ١/ ٣٢.
(٢١) لوقا ١/ ٣٣.
(٢٢) لوقا ١/ ٣٥.
(٢٣) قصص الأنبياء، الأستاذ عبد الوهاب النجار، ط دار التراث.
(٢٤) لوقا ١/ ٧٦.

المسيح في صباه

وبعد ثمانية أيام ختن المسيح، وتطهرت مريم حسب شريعة اليهود، وصعدوا به إلى الجبل؛ لكي يقدموه للرب، وفي هذا يقول لوقا: (ولما تمت ثمانية أيام ليختنوا الصبي سمي يسوع كما تسمى من الملاك قبل أن حبل به في البطن، ولما تمت أيام تطهيرها حسب شريعة موسى صعدوا به إلى أورشليم ليقدموه للرب، كما هو مكتوب في ناموس الرب أن كل ذكر فاتح رحم يدعى قدوسا للرب، ولكي يقدموا ذبيحة كما قيل في ناموس الرب زوج يمام أو فرخي حمام)[٢٥].

ويفهم من هذا النص أن المسيح منذ ولادته اتبعت فيه شريعة موسى من ختان وقربان ومباركة، وأن مثله كمثل أي طفل يدعى قدوسا للرب. إذن فلا يصح أن يقال أنه تنكر لهذا الناموس، وألغى شريعة الختان، ودعي ابن الله الوحيد.

(ومع مرور الأيام والسنين أخذ جسد عيسى يكبر، وأخذ عوده يشتد، وعقله ينمو، وقلبه يتفتح للحياة)[٢٦]. وتحرك كسائر الأطفال في محيط الحياة يبحث عن العلم والمعرفة، فبدأ يزاحم العلماء حتى غاب عن عين مريم ويوسف، وأخذا يبحثان، بين الأقرباء والمعارف (ولما لم يجداه رجعا إلى أورشليم يطلبانه، وبعد ثلاثة أيام وجداه في الهيكل جالسًا في وسط المعلمين يسمعهم ويسألهم، وكل الذين سمعوه بهتوا من فهمه وأجوبته، فلما أبصراه اندهشا، وقالت له أمه: يا بني، لماذا فعلت بنا هكذا هو ذا أبوك وأنا كنا نطلبك معذبين؟)[٢٧].

---

(٢٥) لوقا ٢ / ٢١ ـ ٢٤ . (٢٦) المسيح إنسان أم إله ص ٣٨ محمد مجدي مرجان، ط دار الهنا .
(٢٧) لوقا ٢ / ٤٥ ـ ٤٨ .

ويفهم من هذا الذكر أن المسيح كان صبيًا يسير عليه الناموس البشري يتحرك ويجري ويفرح ويمرح مثله كمثل سائر الصبيان، له أم ترعاه وأب يكلفه، ولم يظهر عليه شيء سوى عبقرية فريدة كسائر الأطفال ذوي الذكاء المرتفع، ومن ثم نرى أن أي ادعاء فوق هذا يخالف النص ويسير وفق الهوى، وهذا لا يصح أن يلحق بالأنبياء وعقائدهم، عليهم السلام.

وبعد، فهذا هو كل ما ذكرته الأناجيل عن المسيح في ميلاده وصباه، ولم نر إنجيلاً واحداً يذكر شيئًا عن أمر النخلة، أو السري، أو كلام عيسى في المهد، أو نذر الصيام، أو تأنيب قوم مريم لها، وهذا كله غفلت عنه الأناجيل وذكره القران الكريم، علمًا بأن منطق الأحداث يلزم ما ذكره القرآن الكريم؛ لأنه ليس من المعقول منطقيًا أن يمر حادث حمل مريم بوليدها وهي مازالت مخطوبة دون أن يدخل بها يوسف بدون أخذ ورد وجدل ورمي ومحاكمة، كما لا يصح أن نسلم بتصديق اليهود مباشرة لمريم حينما تخبرهم بأنه من عند الله، ولذلك تنبه شارل جنيبير قائلاً: (إننا لنلحظ في ثنايا هذه السيرة الإنجيلية نقصًا كثيرًا، وفجوات خطيرة، حتى في إنجيل مرقص الذي بلغ به الحرص أن تحاشى الحديث عن مولد عيسى وطفولته)[٢٨]، وبسبب هذا النقص الوفير يلفتنا الأستاذ شارل جنيبير بعيداً عن تصديق أي إنجيل يتكلم عن ميلاد المسيح وصباه، ويؤكده على ذلك النقص صاحب قصة الحضارة حين يقول: (ولا يذكر أصحاب الأناجيل إلا القليل الذي لا يغني عن شباب المسيح)[٢٩].

(٢٨) المسيحية نشأتها وتطورها ص ٣٨ شارل جنيبير د/ عبد الحليم محمود ط دار المعارف.
(٢٩) قصة الحضارة ج ٢١ ص ٢١٤ يورانت ترجمة محمد بدران.

ومع هذا التخبط في فهم الأحداث التي صاحبت سيرة المسيح الأولى لم نر متّى أو لوقا ـ اللذَين انفردا بذكرها ـ يتحدثان عن ألوهية المسيح أو بنوّته لله تعالى، ومع ذلك نرى هذا الميلاد عند النصارى قد فتح بابًا واسعًا تنفذ منه تلك المدعيات التي تدعي الألوهية للمسيح بسبب غرابة ميلاده، علمًا بأن هذا الغرابة لابد أن تبعد حينما تتدخل قدرة الله تعالى، فلا وقت للجدال ولا مكان للأوهام، وما أفظعها حينما يرسي قواعدها الشيطان وأعوانه، ويحملها قوم بيدهم سهام الحقد والكراهية، فإنها تمزق ثوب الطهارة والعفاف، وهذا ما كان مع اليهود ومقالتهم الشنعاء ضد مريم العذراء عليها السلام.

*****

ثانيًا: حديث اليهود عن المسيح عليه السلام

لقد صرحت الأناجيل أن ألسنة اليهود قذفت المسيح، وجرحت أمه جرحًا مسمومًا لا يندمل إلا بدواء الإسلام، وها هو يوحنا يسجل مقولة اليهود للمسيح: (لم نولد من زنا)[٣٠]، مقولةٌ تشم منها رائحة الفجور والكفر، فهي تقذف المسيح وأمه بتهمة بشعة لا يرضى عنها دين ولا يسكن إليها ضمير، وها هو التلمود يسجل حروفًا مظلمةً عن ميلاد المسيح ونسبه فيقول: (إنه ابن الجندي يوسف بنديرا، حملت به مريم الماشطة قبل زواجها بمباشرة الزنا؛ لأنها كانت عاهرة)[٣١]. (وقد ظل المسيح مدى حياته وهو ينسب إلى زوج أمه يوسف النجار. على حين أنه عند اليهود ابن زنا لا يدري أحد من أبوه)[٣٢].

ولقد ظلت هذه التهمة تساير أذهان اليهود وتنطلق بها ألسنتهم كلما وجدوا المسيح أمام أعينهم، ويقال: (إنه يوماً كان يداعب الصبيان بالكرة، فوقعت منهم بين جماعات مشايخ اليهود، فلم يقدر أحد من الصبيان على استخراجها من بينهم؛ حياء من المشايخ، فذهب عيسى عليه السلام متخطيًا رقابهم و أخذها، فقالوا: ما نظنك إلا زنيمًا)[٣٣].

ولقد سجل القرآن الكريم على اليهود هذه المقولة و اتهمهم فيها بالخروج عن دائرة الإيمان إلى آخر الأزمان، فقال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾[٣٤]...

---

(٣٠) يوحنا ٨/ ٤١.

(٣١) اليهود من نصوص التلمود ص ٦٨ زهدي فاتح.

(٣٢) المسيح في القرآن و التوراة و الإنجيل ص ٢٨٣ عبد الكريم الخطيب.

(٣٣) بين الإسلام والمسيحية. كتاب ابن عبيدة الخزرجي تحقيق د. محمد شامة ص ٢٣٨.

(٣٤) سورة النساء آية ١٥٦.

يقول ابن كثير في توضيح هذه الآية: (قال الإمام علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني أنهم رموها بالزنا، وظاهر الآية أنهم رموها وابنها بالعظائم فجعلوها زانية، وقد حملت بولديها. وزاد بعضهم: وهي حائض)[٣٥].

ويقول الأستاذ محمد مجدي مرجان: (وكم من الناس صدقوا الأكذوبة، وكم من الناس جعل نفسه بوقًا لإذاعتهما: مريم حملت سفاحًا، وابنها عيسى ثمرة علاقة محرمة، وما زالت قصة ميلاد عيسى من عذراء محمل استهزاء اليهود وتهكمهم، وما زالوا يعتقدون حتى الآن أن عيسى ولد من الفحشاء والدنس)[٣٦].

وبعد.. فهذه هي أقوال اليهود في ميلاد المسيح تحمل معها رياح الكفر والفجور، متحركة في كل مكان عبر القرون والأزمان، فماذا فعل النصارى تجاه هذه الأعاصير؟ هل أقاموا الحواجز وأغلقوا النوافذ؟ هل تصدوا لليهود ومزقوا أوراق التلمود؟ لا، بل قد بسطوا أيديهم وأخذوا هذه الأقوال وضموها إلى كتبهم، وسجلها يوحنا في إنجيله، واعتبروها كلامًا مقدسًا يُتلى آناء الليل وأطراف النهار، بسبب أنهم لم يفهموا آية الميلاد، ولم يكلفوا أنفسهم مهمة البحث والتنقيب عن هذا الحدث الفريد، ولذلك رأينا منهم من يغرق في بحور الأوهام، ومنهم من يسكن تحت سقف يعلوه الشك والظلام.

شكوك النصارى

يكشف عنها رجل عاش في المسيحية، وهداه الله للإسلام بعد بحث وتنقيب، حتى ركز في صدره الإيمان، إنه الأستاذ محمد مجدي مرجان

(٣٥) تفسير ابن كثير جـ١ ص٥٧٣.
(٣٦) المسيح إنسان أم إله ص ٦.

الذي قال: (إننا نجد من المسيحيين أنفسهم من يشكك في هذا الميلاد العذراوي، ومن يُعرض عنه تكذيبًا ونفيًا)[٣٧] ويظهر هذا الشك واضحًا في كتاب الروح القدس (أو قوة في الأعالي) تأليف القس أ. ب. سمبنسون، دكتور في اللاهوت، ونقله للعربية يوسف أسطفان ما نصه: (ولد ربنا من الروح المقدس، ويعزو الملاك في بشارته لمريم حبل المسيح، وتجسد إلى الروح الإلهي مباشرة) (الروح القدس يحل عليك، وقوة العلي تظلك، فلذلك أيضًا القدوس المولود منك يدعى ابن الله)[٣٨]، فيعلق على هذا القول ويقول: (يتعذر على العقل البشري إدراك هذا السر، الحَبَل من أنثى وليدة جنس خاطئ، لا نستطيع أن نؤمن بتنزيه مريم من الدنس، ولكننا نؤمن بتنزيه ابن الله وولادته بلا خطيئة)[٣٩].

وهنا نرى الشك يسود هذه السطور، والكفر يتناثر من بين الحروف، وسهم الخيانة يوجه إلى قلب العذراء مريم. ممن؟ من يد كاتب مسيحي يشرح للنصارى ما جاء في أناجيلهم ويقول: لا أستطيع أن أنزه أم الإله تعالى الله من الدنس، ولا يستطيع عقلي أن يصل إلى هذا السر.

ولا أدري كيف وصل عقله إلى سر النبوة التي وصلت المسيح بالله ولم يستطع أن ينزه مريم أم المسيح؟! إنها بلادة عقلية واضحة صاحبت القس، ومن قبله صاحبت من تبع المسيح، كما يدعي كتّاب النصارى حين يقرّون أن مريم لم تستطع أن تفصح للتلاميذ بسر الميلاد يقول بنزسون سيميث: (إنه خلال حياة المسيح لم يفكر أحد قط من التلاميذ أو يخطر بباله ميلاده من عذراء؛ ذلك لأن الأم العذراء التي حفظت جميع الأمور في قلبها

(٣٧) المسيح إنسان أم إله ص ٢٦.
(٣٨) لوقا ١ / ٣٦.
(٣٩) كتاب الروح القدس ص ١٣٨ جـ١ أ. ب. سبنسون، مكتبة العاصمة، عمان.

تكتمت الأمر، ولم تفشه إلا لنفر قليل من الأخصاء؛ وذلك لدقة الأمر وبعده عن التصديق)[٤٠].

وبجوار هؤلاء الذين لم تستطع عقولهم أن تستوعب سر الميلاد، ومن ثم لم يستطيعوا أن يدافعوا عن المسيح وأمه، ظهر على السطح جمع غفير يدّعي أنه يملك شهادة البراءة، ولكنها أودت به إلى قمة الكفر، والدليل على ذلك أنهم يدّعون أن مريم أم المسيح ابن الله في الحقيقة، ووالدته في الحقيقة لا أم لابن الله إلا هي، ولا والد له سوى الله، وأن الله اختارها لنفسه من بين سائر النساء؛ ولذلك يقولون في دعائهم: (يا والدة الإله اشفعي لنا. وهم يعظمونها ويرفعونها على الملائكة وعلى جميع النبيين والمرسلين، ويسألون ما يُسأل به الإله من العافية و الرزق والمغفرة، ويقولون في مناجاتهم لها: يا مريم، يا والدة الإله، كوني لنا سوراً وسنداً وذخراً وركناً)[٤١]. مما سبق نرى أن النصارى تجاه ميلاد المسيح طائفتان:

الأولى: تسير على نهج اليهود، وتحمل سهم الشك، وتوجهه إلى مريم العذراء، ولكنها تخالف في تنزيه الوليد.

الثانية: تخالف اليهود، وتحاول رفع الدنس الذي ألقوه على مريم، لكنها لم تصحب معها المنطق السليم، بل العناد التام الذي جعلها تصل بمريم والمسيح إلى درجة الألوهية، وهذا هو الكفر بعينه. ولذلك قال فيهم أحد الخلفاء: (أهينوهم ولا تظلموهم، فلقد سبوا الله مسبة ما سبه بها أحد من البشر)[٤٢].

---

(٤٠) حياة المسيح ص سميث ترجمة حبيب سعيد.

(٤١) هداية الحيارى ص ٢٦١ شمس الدين محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية، تحقيق محمد شامة.

(٤٢) هداية الحيارى ص ٢٦١. و ذكر اسمه في إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان جـ٢ ص ٢٨٢ - ٢٨٤ للإمام ابن القيم الجوزية على أنه عمر بن الخطاب.

وبعـــد: فإننا رأينا كيف عـاشت مريم ووليـدها وسط تلك التـرهات، وتحت قـذائف الإشاعـات التي ألقـاها اليـهود والنصـارى على آية الميـلاد، فأحرقت الآية، وأصبحت قضية الميلاد مادة للتسلية والإهانات والسخرية، ووقف الناس حيارى بين اليهود والنصارى، لم يسمعوا كلمة صدق، ولم يعرفـوا آية أو برهان، و فـجأة يرتفع منبر الإسلام تحت سـماء مكة بقـيادة محمد ـ علية الصلاة والسلام ـ فيسمعوا أصدق حديث عن مريم وميلاد المسيح النبي الرسول عليهما السلام.

ثالثًا: حديث الإسلام عن ميلاد المسيح عليه السلام

يبدأ الإسلام حديثه عن ميلاد المسيح علية السلام بعد أن بيَّن حقيقة مريم الطاهرة صاحبة النسب الزكي، التي اصطفاها ربها على نساء العالمين ولذلك أرسل إليها الملائكة بالبشرى. قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.[٤٣]

يقول صاحب الظلال: (وهكذا بشرت الملائكة مريم بكلمة من الله اسمه المسيح عيسى ابن مريم تضمنت البشارة نوعه، وتضمنت اسمه ونسبه، وظهر من هذا النسب أن مرجعه إلى أمه[٤٤]، ثم تضمنت البشارة كذلك صفته ومكانته من ربه ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾. كما تضمنت ظاهرة معجزة[٤٥] تصاحب مولده ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً﴾، ولمحة[٤٦] من مستقبله ﴿وَكَهْلاً﴾ وسمته، والموكب[٤٧] الذي ينتسب إليه. ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[٤٨].

وهنا نجد أن الطمأنينة التامة تقذف في قلب مريم؛ لأنها عرفت كل ما يجوب في الحياة مع وليدها، بسبب هذه البشارة التي لم تكن منها بشارة واحدة في الإنجيل، مع أنها يجب أن تذكر إذا كانوا حقًا يمجدون نبيهم. والبشارة هنا لم تكن بمقتضى الذكروالأنثى وإنما بالكلمة، وإذا كانت

(٤٣) آل عمران الآية ٤٥، ٤٦.

(٤٤) يقصد الكاتب بأن المسيح ليس له أب ولذا يقال عنه المسيح ابن مريم.

(٤٥) المفروض أن يقول إرهاصًا وليس معجزة، لأن المعجزة هي ما صاحبت النبي أثناء تبليغه للرسالة.

(٤٦) أي إشارة.

(٤٧) الموكب أي الجماعة التي ينتسب إليها.

(٤٨) في ظلال القرآن جـ١ ص ٣٩٨ سيد قطب.

الكلمة هي (كَنْ) كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[٤٩]. فإن ذلك تقريب لأذهاننا فحسب؛ لأنه لا يوجد عندنا أقصر في الإفهام من كلمة (كنْ)، لكن الحقيقة أن الأمر ينتهي قبل الكاف.

اسمه ولقبه وكنيته:

وإذا كانت البشارة قد ذكرت لنا لمحة عن مستقبل الوليد المبشر به، فقد ذكرت لنا أيضًا أمورًا قد غفلتها الأناجيل في بشارتها وهي المسيح وعيسى وابن مريم، (فالمسيح لقبه ومعناه: الممسوح من الذنوب، أو لأن من آياته أن يمسح على المريض فيبرأ، أو المبارك. وعيسى اسمه. وابن مريم كنيته. والعلم في اللغة يأتي على ثلاثة أنحاء: اسم وكنية ولقب. قال ابن مالك: (واسمًا أتى وكنيةً ولقبًا)، فالاسم ما يطلق على المسمى أولاً، والاسم الثاني إن أشعَر برفعة أو ضعة فهو اللقب وإن كان مبدوءا بأب أو أم فهو الكنية)[٥٠] يقول الزمخشري: (فإن قلت: لم قيل اسمه المسيح عيسى ابن مريم؟ وهذه ثلاثة أشياء؛ الاسم منها عيسى، وأما المسيح والابن فلقبٌ وصفة. قلت: للمسمى علامة يعرف بها ويتميز عن غيره، فكأنه قيل الذي يعرف به ويتميز به ممن سواه مجموعة هذه الثلاثة)[٥١].

هذا.. وقد ذكر اسم عيسى في القرآن الكريم خمسًا وعشرين مرة[٥٢]. وعنه قد تحدث بعض كتّاب النصارى، ومنهم عوض سمعان قائلاً: (وأما الكلمة عيسى فالراجح أنها معربة عن الكلمة اليونانية أيسا، والتي تطلق في

(٤٩) سورة يس آية ٨٢.

(٥٠) مريم و المسيح ص ٣٦ فضيلة الشيخ الشعراوي، ط دار التراث الإسلامي.

(٥١) تفسير الزمخشري جـ١ ص ٤٣. سورة آل عمران.

(٥٢) منها في سوة مريم الآية ٣٤ وكذلك في السور الآتية: آل عمران ٤٥، ٥٢، ٥٥، ٥٩، ٨٤، النساء ١٥٧، ١٦٣، ١٧١، المائدة ٤٦، ٧٨، ١٠١، ١١٢، ١١٤، ٢١٦، الأحزاب ٧، الحديد ٢٧، الصف ٦، ١٤ الأنعام ٦٥.

حالة الرفع أيسوس) [٥٣]. وتعرفه الأناجيل باسم يسوع، ويزعم النصارى أن كلمة يسوع تعني المخلص [٥٤]. ولعلنا نلحظ أن البشارة القرآنية لم تشر إلى هذا الاسم، ولعله صيغة عربية للاسم العبري يشوع أو أيشوع) [٥٥].

والمسيحية لم تقتصر على هذا الاسم بل فتحت بابًا واسعًا للألقاب والأسماء، وألقت بها على شخص المسيح حتى أودت به عليه السلام في بحر من الجدل العميق الذي لم تستطع المسيحية المعاصرة أن تصمد أمام تياره، ومن هذه الألقاب: ابن الله، ابن الإنسان، السيد، الإله، المسيح، المخلّص.

ومن المعروف أن هذه الألقاب كانت متداولة عند أهل الوثن في الفترة التي كتب فيها الإنجيل. تقول فرنسيس يونغ: (إن لهذه الألقاب التي استعملتها الأناجيل أصول آرامية وخلفيات فلسطينية و يهودية وهللينية (يونانية)، وإن ما كتبت في أدبيات العهد الجديد مستقى من مادة كانت جزءًا من التراث الثقافي لتلك الفترة)[٥٦].

والقارئ للأناجيل لم ير هذه الألقاب متداولة على لسان المسيح عليه السلام، الأمر الذي يؤكد أنها كانت قبله، ويمكن الاطلاع عليها في وثائق غير مسيحية بتفسيرات غير مسيحية أيضًا، ومادامت كذلك فلا يصح أن

---

(٥٣) إنجيل برنابا في ضوء التاريخ والعقل والدين ص ١ . ٢، عوض سمعان.

(٥٤) وعمدتهم في ذلك ما جاء في إنجيل متّى: «فستلد ابناً وتدعو اسمه يسوع ليخلِّص شعبه من خطاياهم». (متى ١/ ٢١)، ولم يذكر مرقص أنه مخلصٌ.

(٥٥) راجع في ذلك: تاريخ الأقباط جـ١ ص ٣٩ ذكي شنوده، وقاموس الكتاب المقدس للدكتور بطرس عبد الملاك، تحت كلمة يسوع، وإنجيل برنابا في ضوء التاريخ والعقل والدين ص ١ . ١ .

(٥٦) عن مجلة الأمة القطرية العدد الرابع فبراير ١٩٨١م ص ٥١، والكاتبة أستاذة في علم اللاهوت بجامعة برمنجهام في بريطانيا.

تطلق على عيسى عليه السلام؛ لأنها ستحمل معها مضامين جديدة تحتاج إلى تفسيرات جديدة. ومن الملاحظ أن جميع كتابات العهد الجديد لا تخلو من حمل هذه الألقاب، ويوم أن امتزجت بالفكر المسيحي تمخضت مسيحًا جديدًا يلبس ثوبًا وثنيًا غير سماوي لفظَه القرآن الكريم، ولم يلتفت إليه، ودعا البشرية إلى معرفة المسيح الحقيقي الذي يحمل رسالة التوحيد الخالصة، والذي بشرت به الملائكة قبل أن يولد، والذي لم يطلق على نفسه سوى ابن الإنسان.

أما (المسيح، السيد، الإله، ابن الله) فهو أسطورة من الأساطير التي كانت في الزمن الغابر قبل ميلاده عليه السلام ولهذا قالت فرنسيس يونغ عن الأناجيل التي تحمل هذا الألقاب الوثنية: (إنها لا تصور عادة يسوعًا بل آخرين عند استعمالها لعبارات مثل ابن الله، ويظهر أن لقب ابن الإنسان من دون الألقاب الباقية هو الذي استعمله يسوع نفسه)[٥٧].

والمتصفح للأناجيل يرى صحة ما ذهبت إليه الكاتبة، فلقب ابن الإنسان مثبوت فيها بصورة واضحة أكثر من غيره. يقول صاحب قاموس الكتاب المقدس: (إنه يوجد في الأربعة أناجيل ثمانية وسبعون مثلاً يستخدم فيها يسوع عبارة ابن الإنسان)[٥٨]. وعلى كلٍّ فإن هذه العبارة لا غبار عليها، فهي لا تتناقض مع البشارة القرآنية التي أكدت على أن المسيح هو ابن مريم من الإنس، فهو بالفعل ابن الإنسان ولم يكن أبداً ابن الله تعالى.

الحمل والميلاد بالسيد المسيح عليه السلام:

وبعد أن تحدث الإسلام عن بشرى الملائكة بالوليد المبارك تحدث عن

(٥٧) المصدر السابق ص ٥١.

(٥٨) انظر قاموس الكتاب المقدس تحت عبارة ابن الإنسان، د. بطرس عبد الملك.

حمل العذراء مريم لهذا الوليد بحديث يعلوه الوقار، و تسوده عبارات الصدق، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[٥٩].

ولتفسير قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ قد تعرض الإمام ابن كثير قائلاً: (قد ذكر من غير واحد من علماء السلف أن الملك - وهو جبريل عليه السلام نفخ في جيب درعها، فنزلت النفخة حتى ولجت في الفرج فحملت بالولد بإذن الله تعالى، فلما حملت به ضاقت ذرعا، ولم تدر ماذا تقول للناس، فإنها تعلم أن الناس لا يصدقونها فيما تخبرهم به غير أنها أفشت أمرها لخالتها امرأة زكريا)[٦٠][٦١].

وإذا كانت الآلام النفسية قد أصابت العذراء مريم ساعة الحمل؛ خوفاً من عدم تصديق الناس لها، فإن هذه الآلام بلا شك ازدادت وطأتها على قلبها ساعة أن جاءها المخاض، وهذا بين واضح في قولها بعد ذلك: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ وتمني الموت هنا يعني أن مريم كانت بالفعل طاهرة نقية،[٦٢] وإلا لما فضلت الموت على الفضيحة.

ولا عجب فهي التي نشأت في بيت النبوة، وتربت في أحضان التقوى، ومن كانت هكذا نشأته وتربيته فلابد أن يعتريه خوف وينتابه قلق، ويتمنى الموت على الحياة إذا ما أحس بأن هناك فضيحة إليه قادمة كما يراها القوم، وبينما الخوف والقلق يملآن صدر مريم من فضيحة قومها إذ بصوت

---

(٥٩) سورة مريم الآية ٢٢ ، ٢٣ .

(٦٠) كانت تسمى الياصبات أي قسم الله، انظر كتاب يوحنا المعمدان ص ٢٥ عبد الرزاق نوفل.

(٦١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١١٦ سورة مريم.

(٦٢) وما أشارت إليه الآية الكريمة يرد به على اليهود، والذين كانوا يرون غير ذلك كما علمنا سابقًا.

الاطمئنان، بإذن الواحد القهار، يصل إلى أذنيها. ممن؟ من وليدها الذي هو دليل تهمتها وهو سيكون دليل براءتها:

﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [٦٣] في رواية من قال: (إن السري هو عيسى، والسري هو النبيل الجليل، يقال: فلان من سروات القوم أي أشرفهم) [٦٤].

ثم دعاها إلى تأمين جسدها بأكلها الرطب الجني، بعد أن أمنها على عدم فضيحتها؛ ولذلك خرجت على قومها تحمله قائلةً: إنه بأمر الله كان ميلاده. فطالبوها بالدليل، فلم تأت بشهود، ولكنها أشارت إليه: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾. [٦٥]

يقول الشيخ محمد أبو زهرة: (ولما ولدته و خرجت به على القوم كان ذلك مفاجأة لهم، سواء من يعرف نسكها وعبادتها ومن لا يعرف؛ لأنها فاجأتهم بأمر غريب وهي المعروفة بينهم بأنها عذراء ليس لها بعل، فكانت المفاجأة داعية الاتهام؛ لأنه عند المفاجأة تذهب الرؤية، ولا يستطيع المرء أن يقابل بين الماضي والحاضر وخصوصًا دليل الاتهام قائم، وقرينته أمر عادي لا مجال للريب فيه عادة. ولكن الله سبحانه وتعالى رحمها من هذه المفاجأة، فجعل دليل البراءة من دليل الاتهام؛ لينقض الاتهام من أصله، ويأتي على قواعده، و يفاجئهم بالبراءة وبرهانها الذي لا يأتيه الريب،

(٦٣) سورة مريم بعض آية ٢٤.
(٦٤) تفسير ابن الخطيب الشربيني جـ٣ ص ٤٢١.
(٦٥) سورة مريم الآيات من ٢٩ : ٣٢.

ليعيد إلى ذاكرتهم ما عرفوه في نسكها وعبادتها، ولذلك نطق الغلام [٦٦] وهو قريب عهد بالولادة) [٦٧].

وهنا نلاحظ أن مريم لم تتحدث بكلمة واحدة، ولكن المتحدث هو الوليد صاحب العمر القصير، وكان المفروض أن تتكلم مريم وتدافع عن نفسها لأنها هي المتهمة الحقيقية، فلماذا تحدث هو ولم تتحدث هي؟ يقول الإمام الرازي في الإجابة على هذا السؤال: (إن كلام عيسى عليه السلام أقوى في إزالة التهمة من كلامها، وفية دلالة على أن تفويض الأمر إلى الأفضل أولى، فلو تحدثت هي لرأت جدلاً، وهم سفهاء، والإسلام يكره مجاملة السفهاء [٦٨]، ولذلك فسكوت مريم هنا واجب؛ لأن الحكمة تقول: من أذلِّ الناس سفيه لم يجد مسافها) [٦٩].

ومن الملفت للنظر هنا أن المسيح عليه السلام حين تحدث لم يتحدث في البداية دفاعًا عن أمه، ولكنه تحدث عن نفسه وعن عبوديته لله الواحد، والحاجة كانت تستدعي أن يبدأ بأول كلمة يبرئ بها أمه، ولكنه بدأ بإزالة التهمة عن نفسه أولاً، حتى لا يدّعي أحد أنه إله أو ابن إله بل هو عبد الله، ونبي كسائر الأنبياء، يقول الرازي: (إن الذي اشتدت الحاجة إليه في ذلك الوقت إنما هو نفي تهمة الزنا عن أمه عليها السلام، ثم إن عيسى عليه السلام لم ينص على ذلك، وإنما نص على إثبات عبودية نفسه، كأنه جعل إزالة التهمة عن الله أولى من إزالة التهمة عن الأم؛ فلهذا أول ما تكلم تكلم بها) [٧٠]. وكأن المسيح عليه السلام كان ينظر من وراء الحجب

(٦٦) كان الأولى أن يقول نطق الطفل؛ لأن الغلام ما بدأ من سن السابعة فما فوق.
(٦٧) محاضرات في النصرانية ص ١٦، محمد أبو زهرة جـ١، دار الفكر العربي.
(٦٨) نسب الرازي مريم إلى الإسلام لأنها كانت تدين بالدين الصحيح، وكل من كان كذلك فهو على الإسلام.
(٦٩) تفسير الفخر الرازي جـ٢١ ص ٢٠٨ سورة مريم.
(٧٠) تفسير الفخر الرازي جـ٢١ ص ٢٠٨ سورة مريم.

مخترقًا بصوته كل ذهن يشك في أمه، أو يرتفع بشخصه إلى ما فوق العبودية.

والمسيح حين تحدث عن الله تعالى إنما قصد تنزيه الخالق أولاً وقبل كل شيء وهذا أمر منطقي ومقبول إن تمعن فيه السامعون؛ لأن الله سبحانه لا يمكن أن يصطفي غير الصالحة ويخصها بهذه الدرجة والمرتبة العظيمة ولذلك لابد أن ترفع التهمة عن الله تعالى أولاً، ومن ثم تزول التهمه عن أمه، أما إذا تحدث عن أمه أولاً فإنه لا يفيد إزالة التهمة عن الله تعالى فكان الأفضل أن يبدأ بحديثه عن الله تعالى، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن إقراره بالعبودية لله تعالى، يبطل كونه إلهًا عند من توهم ذلك؛ لأن الإقرار المذكور يحصر القضية في فرضين وهما:

إما كونه صادقاً فيحصل المطلوب، أو كاذباً فيبطل القول بأن به قوة إلهية أدت به إلى الكذب، وعلى كلا الفرضين يبطل كونه إلهًا.

الأناجيل غفلت القصة:

إن القرآن الكريم هو الذي تحدث عن هذه القصة، ولكن الأناجيل قد غفلت عنها علمًا بأنها ترفع من شأن نبيهم، فهي لا شك آيةً مبهرةً، وفي ذلك يقول الأستاذ محمد مجدي مرجان: (إن القرآن الكريم يذكر معجزة لا تقل روعة عن معجزة ميلاده من عذراء، معجزة لم يرِد لها ذكر في الإنجيل، تلك هي معجزة[٧١] حديث عيسى إلى الناس بمجرد ولادته، وهو

(٧١) المفروض أن يقول آية، لا معجزة، لأن المعجزة هي ما صاحبت الرسول أثناء تحمله الرسالة.

مازال طفلاً لم تمض على ولادته ساعات، حديث أنطقه به الله ليؤكد براءة أمه وخلو ساحتها) [٧٢].

فما تأويل هذا؟ ما الذي جعل الأناجيل لا تذكر ذلك الحدث؟ هل ذكره ينقص من قيمة المسيح، ويعكر صفوة ميلاده؟ لا أرى ذلك، فمنطق الأحداث يدعو إلى ذكره، واليهود أنفسهم لا يمكن أن يصدقوا مريم إلا إذا كانت حجتها أقوى من ادعائهم؛ لأنها هي المفاجئة، وهم المفاجَؤون، وعند المفاجأة تذهب الرؤية ويطلب الدليل، فهل هنَاك دليل أقوى من كلام المسيح؟ خاصة حينما يكون طفلاً صغيراً لا يبلغ من العمر إلا ساعات يمكن للمرء أن يتخيل دليلاً على تبرئة الأم أقوى من هذا، ولذلك نكرر السؤال مرة أخرى ونقول:

لماذا أغفلت القصة؟:

والبداهية العقلية تلفتنا نحو الإجابة الدقيقة التي تقر بأن كلام طفل في المهد سيكون عجيبًا و ملفتًا للأذهان ومتداولا بين الناس، بل سيحفظ ويردد في كل وقت وحين وهذا هو ما كان، بيد أن هذا العصر الذي كتبت فيه الإنجيل كان عصر اضطهاد وقلق، (حيث كان اليهود يضطهدون فيه أتباع المسيح ويلاحقونهم بالأذى، وأنهم كانوا يطلقون ألسنتهم في المسيح وفي أمه، وفي المعجزات التي وقعت منه، ويتهمونه بأشنع التهم و أبشعها، فليس معقولاً ـ والأمر كذلك ـ أن يفتح كُتّاب الأناجيل جبهة جديدة للحرب بينهم وبين اليهود) [٧٣]، هذه من ناحية، ومن ناحية أخرى نرى أن كلام المسيح في المهد لا يُسعف من يدّعون أنهم أتباعه، خاصة حينما يقول إني عبد الله. وهم يريدون أن يضعوه فيما هو أرقى من ذلك.

(٧٢) المسيح إنسان أم إله ص ٢٩، د. محمد مجدي مرجان، ط دار الهنا.
(٧٣) المسيح في القرآن والتوراة والإنجيل ص ٥١٧، الأستاذ عبد الكريم الخطيب.

والقرآن الكريم حينما ذكر هذه القصة الكلامية قصد إلقاء شارات ضوئية على بشرية المسيح وعدم ألوهيته؛ لأنه حين يقول: إني عبد الله، فإنه يقصد التنبه إلى بشريته وعبوديته لله الواحد، ثم تحدث بعد ذلك عن براءة أمه. وأصحاب الأناجيل إن اشتاقوا إلى الثانية إلا أنهم لا يريدون الأولى؛ لأنها ستحطم صرح ديانتهم وهم بهذا لا يفرحون، فالعبودية في الصغر ستكون كذلك في الكبر، والألوهية المدعاة لا تتطور ولا تتغير فهي وإن وجدت على حسب ادعائهم فهي في المهد ستكون هي هي في الكهولة، فإذا تدرجت من المهد إلى الكهولة وكملت بها كانت ناقصة، ويترتب على هذا النقص الحدوث، ولهذا لم تذكر القصة في الأناجيل؛ لأنها ستخضع للمنطق السليم الذي لا تعترف به هذه الأناجيل، وعلى كلّ فإن هذه القصة ستظل شارة الخصومة بين الأناجيل والقرآن على مر القرون و الأزمان.

الإسلام يتحدى:

والإسلام إذ يقول في عيسى وفي كلامه في المهد قولاً ينكره المسيحيون ولا يجدون شاهداً عليه في أناجيلهم فإنه يقر الحق الذي غم على الناس أمره، ولا عليه إذا صدّق المسيحيون كلامه أو نفوه فإن الحق هو الحق سيظل هكذا قائمًا على الدهر يتحدى المكابرين ويواجه المنحرفين ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ (٧٤). والعاقبة دائمًا للحق وإن حامت حوله سحب الضلال وانعقدت من حوله ظلمات الجهل فإن هذه أمور عارضة لا تلبث أن تزول ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاس

(٧٤) سورة الأنعام بعض آيه ١٠٤.

فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾[٧٥]. وستظل الساعات الأولى لميلاد المسيح والتي سجل لها القرآن الكريم حدث الكلام، ستظل بحديثها آية تتحدى ما يبلغ الناس من علم، وستكشف الأيام عن واقع الأمر في عاجل أو آجل، فطول الزمن أو قصره لا حساب له في الصراع بين الحق والباطل، بل هو عنصر من عناصر التمكين للحق وإستيلائه بضربة قاضية على قوى الباطل، وكل يوم تشهد الدنيا صدق آي القرآن الكريم، وعلى مدى أربعة عشر قرناً من الزمان لم نر له سقطة واحدة مع كثرة العيون المحدقة عليه والعقول المنحرفة عنه، وما وقع يشهد بذلك لما لم يقع.

ومن ثم كان المنطق السليم يقتضي ألا يتهم أصحاب الأناجيل القرآن الكريم بالكذب عند ذكره للقصة، بل كان المفروض أن يسلكوا سبل العقل العلمي السليم؛ لأن أقل ما ينبغي أن يستقبل به العقل العلمي في هذا الخبر الذي تحدث به القرآن الكريم في كلام المسيح أن يتوقف فيه فلا يكذب ولا يصدق حتى يقع على البرهان القاطع بهذا أو ذاك ولكنهم دائمًا وأبدًا عن الحق مُعرضون، وللعلم ومنطقه أعداء، وحوادث الزمن تشير إلى مدى الخصومة التي دارت بين اليهود والنصارى في شأن الميلاد.

وفي لحظة يبحث النصارى لهم عن حجة تزيل إنكار اليهود - وهم يعلمون أن كلام المسيح هو الحجة الدامغة لانتصارهم، والدليل القاطع لتنزيه نبيهم. ولكنهم يظهرون له الإنكار. والإسلام لا يبالي بإنكارهم. وفي هذا يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب: (وقد أخبر الله تعالى في القرآن الكريم عن المسيح أنه تكلم في المهد، وأن على الوجود كله أن يسمع ويخشع، وما كان لغير الحق السماوي أن يقف هذا الموقف إزاء أمر يشتهيه

(٧٥) سورة الرعد آية ١٧.

أهله، وهم له منكرون، ويتمنونه وهم عنه معرضون؛ خوفًا من البهت والتكذيب) [٧٦].

ومما سبق أستطيع أن أقول: إن الإسلام ـ لا الأناجيل ـ هو الذي تحدث بصدق عن حدث الميلاد وسد كافة الثغرات التي غفلتها الأناجيل، وإن الإسلام ـ لا الأناجيل ـ هو الذي يملك البرهان القاطع على مواجهة اليهود، وتبرئة ساحة مريم من التهم و الأباطيل. وإذا كان النصارى ليس بمقدورهم إلا الدهشة من هذا الحدث ـ ولذا استخدموه شارة على نبوة المسيح و ألوهيته ـ فإن الإسلام هو الذي يدحض هذا الافتراء، ويؤكد بالأدلة الساطعة على أن خلق عيسى من غير أب لا يؤهله لدرجة الألوهية، وما ذاك إلا لكونه مثيلاً لآدم في هذا الخلق.

ولنذكر الآن:

المثلية بين آدم والمسيح:

يقول تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [٧٧]

يقول صاحب الظلال في تعليقه على هذه الآية: (إن ولادة عيسى لعجيبة حقًا بالقياس إلى مألوف البشر، ولكن أي غرابة فيها حين تقاس إلى خلق آدم أبي البشر؟ وأهل الكتاب الذين كانوا يناظرون ويجادلون حول عيسى بسبب مولده، ويصوغون حوله الأساطير بسبب أنه نشأ من غير أب، كانوا يقرون بنشأة آدم من التراب، وأن النفخة من روح الله هي التي جعلت منه الكائن الإنساني، دون أن يصوغوا حول آدم الأساطير التي صاغوها حول عيسى، ودون أن يقولوا عن آدم أن له طبيعة لاهوتية، على

(٧٦) المسيح في القرآن و التوراة و الإنجيل ص ٥١٤، الأستاذ عبد الكريم الخطيب.
(٧٧) سورة آل عمران الآية ٥٩.

حين أن العنصر الذي صار به آدم إنسانا هو ذاته العنصر الذي به ولد عيسى من غير أب؛ عنصر النفخة الإلهية في هذا وذاك، وإن هي إلا كلمة (كن) تنشئ ما يراد له النشأة فيكون)[٧٨].

وهنا نلمس أن القرآن الكريم تحدث عن شيء لدى العقل معلوم ولم يبدأ ببرهانه من مجهول وهذا هو ما يرضاه المنطق السليم. وإذا كان الله تعالى أوجد هذه الأكوان الرهيبة بعجائبها وعظائمها من العدم أي من لا شيء فإنه أوجد آدم من شيء وهو التراب، والتراب لا روح فيه فهو جماد، ومع ذلك خلق منه أدم ونفخ فيه الروح، وإذا أوجد آدم من جماد لا حياة فيه فإنه أوجد عيسى من امرأة ذات حياة وروح، وهي مريم عليها السلام، فأمر عيسى أمر سهل إدراكه على العقل البشري إذا تطرق إلى خلق الأشياء في الكون، ومن ثم لا يصح على أصحاب العقول النيرة أن يذهبوا بعيسى بسبب ميلاده إلى مرتبة الألوهية، ولا يصح أن يكون ميلاده هو مفتاح بنوته لله تعالى، بل هو مفتاح التفكر في كمال قدرة الله تعالى. يقول أبو عبيدة الخزرجي: [٧٩] (أليس من الواضح عند ذوي العقول أنه لما لم يلزم من عدم الأب والأم البشرين لآدم عليه السلام أن يكون ابنا لله؟ ولما لم يبعد خلق آدم من التراب لم يبعد خلق عيسى عليه السلام من الدم الذي كان يجتمع في رحم أمه عليهما السلام) [٨٠].

نعم إن الذي خلق الرحم وجعل الدم يسير فيه هو الذي يجعل الوليد يتحرك في أحشائه وينفخ فيه من روحه حتى وإن خالف ذلك مألوف البشر؛ لأن قدرته تفوق عقولهم، وهو الذي خلقهم، وهو الذي يعلن عن

---

(٧٨) في ظلال القرآن ص ١ / ٤٠٤ ، ٤٠٥ سيد قطب.

(٧٩) هو أبو جعفر أحمد بن عبد الصمد بن أبي عبيدة. فقيه أندلسي ولد سنة ٥١٩ هـ وتوفي في فارس سنة ٥٨٢ هـ.

(٨٠) بين الإسلام والمسيحية ص ١٠٣ أبو عبيدة الخزرجي، تحقيق د. محمد شامة.

قدرته متى شاء وكيف شاء ولمن شاء، ويوم أن تنتبه العقول أمام حدث غريب كميلاد المسيح - تظهر نداءات الله للمؤمنين قائلة: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾[٨١]. وعن المثلية بين آدم والمسيح يقول ابن تيمية رحمه الله: (إن الله سبحانه وتعالى خلق هذا النوع البشري على الأقسام الممكنة ليبين عموم قدرته، فخلق آدم من غير ذكر ولا أنثى وخلق زوجته حواء من ذكر بلا أنثى كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[٨٢] وخلق المسيح من أنثى بلا ذكر، وخلق سائر الخلق من ذكر وأنثى، وكان خلق آدم أعجب من هذا وهذا، وهو أصل خلق حواء، فلهذا شبهه الله بخلق آدم الذي هو أعجب من خلق المسيح)[٨٣]. وهذا التشابه بين آدم والمسيح الذي أثاره القرآن الكريم يمكن حصره في أمرين:

أولهما: النفخ من روح الحق، وهذا كان لآدم عليه السلام ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[٨٤]

وثانيهما: في كلمة (كن)، وهذان الأمران نجدهما في المسيح، فهو كلمة الله التي ألقاها إلى مريم وهي (كن)، وروح منه، وهي النفخة عن طريق الملاك، وهذا قياس واضح على مثلية الخلق بينهما.

قدرة الله تعالى فوق الأسباب:

هذا وفي القياس السالف الذي ساقه القرآن الكريم بين آدم والمسيح يمكن أن يرد به على من ادعى أن ميلاد المسيح بدون أب هو السبب في كونه ابنا لله تعالى، وفي كونه إلها تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

---

(٨١) سورة الشورى بعض آية ٤٩. (٨٢) سورة النساء من الآية ١.

(٨٣) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ج١ ص ٢٩٤، الإمام ابن تيميه، المتوفى عام ٧٢٨هـ.

(٨٤) سورة الآية ٧٢.

والآن نتعرض لمن ينكر هذه المثلية، ولمن ينكر أيضًا حدث الميلاد أصلاً، ويدعي أن مريم عليها السلام قد حملت بالمسيح سفاحًا، وهذا القول لا يكون إلا من الذين يحملون جرثومة الكفر وحينما يتصدون لحدث الميلاد بالإنكار فإنهم لا يحملون سوى سلاح الجمود والغموض العقلي الذي تصحبه بلادة الفكر، ولو كان لهم دليل عقلي على استحالة ذلك لالتمسنا لهم العذر، ولكن لا دليل لهم سوى أنه غير معتاد، ونسوا أن الوقائع الخارقة كثيرة في محيط الحياة الكونية على مر العصور والأزمان، وكلها تدل على أن قدرة الله تعالى لا تخضع للتجارب البشرية، ولكنها تفوق ذلك وتخالف مألوف البشر، وإلا فما معنى أن ينفجر الماء من قلب الحجر، وأن تنقلب الحية إلى عصا، وتخرج من الدائرة الروحية إلى الدائرة الجمادية كما وقع مع نبي الله موسى عليه السلام وبما يُعبر عن النار التي حُوِّلت بقدرة قادر إلى غرفة تكييف هوائية، يصحبها بردٌ وسلامٌ على إبراهيم، إن هذا كله لا يخضع لمعامل البشر، وإنما لأوامر رب العالمين. ونطرح الآن سؤالاً: هل هذه الأمور التي جرت في الكون وقصها التاريخ علينا تعتبر فلتات؟

إن كانت كذلك، فإما أن يكون لها سبب خفي، وحينئذ يجب أن نهتدي إلى أن بعض الأشياء يجوز أن يأتي من غير طريق الأسباب المعروفة لكنهم لم يقفوا عليه، ولا ينزل أمر عيسى في الحمل والميلاد من غير أب عن ذلك.

وإما أن تكون قد وجدت في الواقع وهي في نفس الأمر خارقة لنظام الأسباب، وحينئذ يجب أن يقرّوا بأن الأسباب الظاهرة المعروفة ليست واجبةً وجوبًا عقليًا مطردًا، فإذا كان الأمر كذلك امتنع العاقل عن إنكار

شيء، وعدَّه من جملة المستحيلات، ولعل أبناء العصور السابقة كانوا أقرب إلى أن يُعذروا بإنكار غير المألوف من أبناء هذا العصر الحديث، سواءً في أوربا أو غيرها الذين ظهرت بين ظهرانيهم اكتشافات حديثة لو حدَّث بها الغابرون لعدُّوها ضربًا من الخرافات. وفي ذلك يقول الإمام محمد عبده: (إن علماء القرن أي الحديث وفلاسفته متفقون على إمكان التوالد الذاتي، أي توالد الحيوان من غير حيوان أو من الجماد عندهم جائز، ومن ثمَّ، فتوالد الحيوان من حيوانٍ واحدٍ أولى بالجواز وأقرب إلى الحصول).

ثم يستطرد قائلا: (إن الاعتقاد القوي الذي يستولي على القلب، ويستحوذ على المجموع العصبي يُحدث في عالم المادة من الآثار ما يكون على خلاف المعتاد، فكم من سليم اعتقد أنه مصابٌ وليس في بدنه شيء من جراثيم هذا المرض، فولد له اعتقاده تلك الجراثيم الحية وصار مريضًا. وكم من امرئ سقي الماء القراح أو نحوه فشربه معتقداً أنه سم ناقع فمات مسموماً، وإذا اعتبرنا هذا في أمر ولادة المسيح نقول: إن مريم لما بشرت بأن الله تعالى سيهب لها ولدًا بمحض قدرته ـ وهي على ما هي عليه من صحة الإيمان وقوة اليقين ـ انفعل مزاجها بهذا الاعتقاد انفعالاً فعل في الرحم التلقيح كما يفعل الاعتقاد القوي في مزاج السليم فيمرض أو يموت، وفي مزاج المريض فيبرأ) (٨٥)

ومع احترامي لرأي الإمام إلا أني لا أوافقه بأن قضية الحمل قد تكون خاضعة للمزاج والانفعال المذكور؛ لأن النص القرآني واضح الدلالة بأن مريم نفخ في درعها الملاك بإذن الله، فحملت بالمسيح عليه السلام. وقد يقصد الإمام من قوله هذا تقريب المسألة للأذهان، وإظهار أمر الحمل

(٨٥) انظر تفسير المنار ج٣ ص٣٠٩.

والميلاد بصورة أوضح لهؤلاء الأغبياء، وإثبات أن عنصري الذكورة والأنوثة يجوز عليهما أن يجتمعا في مريم عليها السلام بقدره الله تعالى دون تدخل من، أحد، وهذا هو ما أثبته الإسلام بالفعل، وإذا كان المجتمع الأوربي المسيحي قد تنكر لما أثبته الإسلام فإن هذا المجتمع ولدت فيه وقائع واكتشافات ليست ببعيدة عن الأسماع والأنظار، وهاك بعضها فمثلا :

وقائع واكتشافات قد تؤيد حدث الميلادفي مجال العلم الحديث:

أ) في عالم النبات:

(نرى أن بعض شجيرات الحبوب والفواكه تتلاقح من ذاتها بسبب اجتماع عنصري التذكير والتأنيث، وهذا يشيع في عالم النبات؛ لأنه لا يستغني عن الأرض)[٨٦] . ومن المعلوم أن الخنثى من ذرية بني آدم تجمع فيها عنصري الذكورة والأنوثة، وهي بهذا تماثل الفصيلة النباتية التي تجمع عنصري الذكورة والأنوثة في أصل واحدوشجرة واحد، فتتلاقح وتثمر من ذاتها، فكيف لا تعي وتدرك عقولنا خلق عيسى عليه السلام من امرأة فقط بأمر من الله تعالى .

ب) في عالم الثدييات:

نشرت مجلة لانست الطبية الإنجليزية المعروفة بحثًا بعنوان التوالد في الثدييات جاء فيه : (نلاحظ أن بعض أنواع الأسماك التي عزلت إناثها منذ ولادتها قد وجدت مخصبة، ونتج عن ذلك ولادتها لنسل يتكون في غالبيته من إناث . ويقول الخبر : وقد أمكن تسجيل عملية انقسام البويضة عذريًا في القطط وحيوان ابن مقرض، ثم حديثا في بعض دجاج الرومي

(٨٦)الإسلام نور الأكوان ص ٢٣ ، الأستاذ محمد زكي الدين الطهطاوي .

غير المخصب، لكن تطور التوالد العذري بمعناه الكامل بحيث يعطي نسلاً قابلاً للنمو والحياة يمكن عمله في الثدييات، وذلك بتبديد قنوات فالوب، وقد أمكن إنتاج كثير من الأرانب عديمة الآباء بهذا الأسلوب)[٨٧]. وبناء على ما أثبته العلم الحديث يكون التوالد في الثدييات بدون تدخل للذكور، أمر واقع، وإن كان نادراً فهو محتمل الوقوع، وإن من يمنعه عليه أن يعيد النظر في اعتقاده.

وقائع في محيط التناسل بين البشر:

(إن إمكانية حدوث حمل لامرأة دون إدخال واحد على الأقل من الحيوانات المنوية إلى رحمها يعد أمراً لا يستطيع الإنسان العادي قبوله برضى، ولبضع قرون وقفت الفكرة العلمية في صف هذا الإنسان العادي، لكن علماء الأحياء ـ وخاصةً علماء الوراثة الخلوية ـ قد يكونون أقل تشدداً في استبعاد مثل هذا الاحتمال)[٨٨]. وقد كان هذا التراجع بسبب(ما قرره علماء الطبيعة من أن البنت البالغة القوية كاملة الحيوانية ناضجة الأنوثة إذا توافرت فيها الغدد المؤدية لكمال الرتبة الإنسانية يجوز أن يتخلل من مجموعها المنوي مني صالح يتطور في الرحم تطور مني الرجال فيكون منه إنسان)[٨٩].

وبناء على هذا القرار الذي أشار إليه علماء الطبيعة فإن أمر الحمل والوضع للأنثى بلا مواقعة للرجل من الأمور المحتملة الوقوع، بل وقع منها الكثير في محيط الحياة الإنسانية، والدليل على ذلك هذا الخبر الذي نشرته صحيفة أخبار اليوم المصرية نقلاً عن صحيفة الصنداي بكتوريا البريطانية

(٨٧)الخير في كتاب النبوة والأنبياء ص ٦٥، ٦٦، مهندس أحمد عبد الوهاب.
(٨٨) انظر كتاب النبوة و الأنبياء ص ٦٥.
(٨٩) الإسلام نور الأكوان محمد زكي الدين الطهطاوى ص ٢٦ : ٢٧.

من أن عددًا من النسوة تقدمن إلى لجنة طبية يُخبرن بأنهن تعرضن لحالات حمل وولادة دون تدخل من أي رجل على أية صورة، وشكلت اللجنة عددًا من الأخصائيين أجروا فحصًا طبيًا على امرأة منهن وفتاتها، ثم قررت بعد الفحص ما يلي: (لقد استخدمنا جميع التجارب والاختبارات العلمية المعروفة في عالم الطب، ولم نستطع أن نثبت أن أي رجل قد اشترك بأية وسيلة في خلق هذه الفتاة[٩٠] هذا هو ما قررته اللجنة الطبية في البلاد الأوروبية المسيحية.

ونحن ـ وإن كنّا قد استأنسنا بذكر بعض هذه الوقائع ـ فإننا لا نقصد سوى تذكير القوم بأن قدرة الله ومشيئته في الكون غير خاضعة للأسباب وما هو مألوف، بل هي فوق كل ما يتصوره البشر، ولذا نقرر باسم الإسلام أن مريم ولدت المسيح عليه السلام بدون أب، ودون تدخل من أحد سوى أمر من الله ليكون فكان، (وإن الله تعالى المسخرللأرواح المنبثة في الكائنات قد أرسل روحًا من عنده إلى مريم فتمثل لها بشرًا سويًا، ونفخ فيها، فأحدثت النفخة التلقيح في رحمها فحملت بعيسى عليه السلام، وهل حملت إليها تلك النفخة مادة أم لا؟ الله أعلم بذلك)[٩١].

وإذا كان القوم لا يعجبون حينما يرون العلم الحديث والوقائع الإنسانية تشير إلى مثل هذه الولادة العذرية فإننا لا نعجب من أمر يصدر عن الله تعالى لمريم عليها السلام أو لأي مخلوق في هذه الحياة والأكوان المنظورة والمستورة؛ لأن أمره سبحانه لا يصدر إلا عن علم وحكمة.

---

(٩٠) صحيفة أخبار اليوم المصرية بتاريخ ٣٠ يونيه ١٩٥٦م.

(٩١) تفسير المنار جـ٣ ص ٣١٠ الشيخ محمد رشيد رضا.

وبعـــد: فقد كانت ولادة المسيح علية السلام، وعدم فهم الحكمة منها السبب الأول [٩٢] الذي أدى إلى ضياع جوهر الرسالة المسيحية الصحيحة. تلك الرسالة التي كانت تتسم بالتوحيد في العبودية والربوبية والألوهية، ولم تعرف توحيداً مشوهًا يرتدي ثوبًا وثنيًا، وهو الذي ترتديه مسيحية اليوم وهي غارقة في بحور من الأوهام والخرافات التي سطرت حول ميلاد المسيح علية السلام حتى أودت به في عالم من الأساطير، الأمر الذي جعل كثيراً من المؤلفين و المؤرخين يعتبر المسيح أسطورة خيالية حاكتها أحلام الواهمين، ولذلك يقول ديورانت: (هل وجد المسيح حقا؟ أم أن قصة مؤسس المسيحية، وثمرة أحزان البشرية وخيالها أسطورة من الأساطير شبيهة بخرافات كرشنا وأوزوريس وأودنيس وديونيش ومثراس؟) [٩٣].

ومن حق ول ديورانت أن يتساءل، ومن حقنا أن نتساءل معه عن هذا الوليد الأسطورة صاحب الرسالة الوثنية، ولكننا نبحث الآن عن المسيح ابن مريم؛ الحقيقة البشرية صاحب الرسالة التي سطرت عبارات التوحيد، والتي أشاد بها الإسلام عبر القرون والأزمان. وهذا هو ما سنتناوله في الفصل الثاني إن شاء الله تعالى.

(٩٢) هناك أسباب أخرى كالمعجزات وغيرها سنناقشها في حينها إن شاء الله.
(٩٣) قصة الحضارة ٣/ ٢٠٢، ول ديورانت، ترجمة محمد بدران.